



الالتزام في «سفر الفقر والثورة» بقلم سوفي خميس

في هيكल النور غريفا ، صامتا ، نكلم المساء
وفي الجزء الثاني من القصيدة يصور الشاعر مرحلة الوعي
والارتباط بالواقع في حياة بطله الذي تمرد على الفقر والظلم الاجتماعي
والعذاب :

ما أوحش الليل اذا ما انطفأ المصباح
واكلت خبز الجوع الكادحين زمر الذئب
وصاندو الذباب
وخربت حديقة الصباح
السحب السوداء والامطار والرياح
... الى ان يحدث الامتزاج بين الرؤية الواقعية والوجدان
الصوفي في شفافية باهرة :
- يا مسكري بحبه ،
محيري في قربه ،
يا مفلق الابواب
الفقراء منحوني هذه الاسمال .
وهذه الاقوال

فمد لي يدك عبر سنوات الموت والحصار
اما في الجزء الثالث فان الشاعر يوحي الينا بعرضية النظرة
الرومانسية للحياة فيحكى تحت عنوان « فسيفساء » قصة مهرج احب
ابنة السلطان ، وكان حبه يساعده على تحمل عبء حياته كمهرج ، ولكن
حدث ان ماتت ابنة السلطان - بلا سبب - كما تموت فراشة فسي
الحقول ، فجن المهرج ولاذ بالصمت - وانتهت القصيدة . ويقول الشاعر
في ختام هذا الجزء :
رويت ما رأيت
رأيت ما رويت
كان ويا ما كان

وكانه يعلن انفصاله ، ويوحي الينا بانفصال البطل في نفس الوقت
عن هذا العالم الغريب المحزن اللامعقول ، وكانه اراد ان يصور لنا
بطريق غير مباشر تلك اللحظة التي يتخطى فيها وعي البطل النظر الى
الحياة على انها مجرد قصة محزنة ، لان له همومه الأخرى الأكثر
جدية ، ولان العالم يلقي عليه عبء مسئولية فادحة يواجهها في الجزء
الرابع من القصيدة حيث يحدث الصدام المنتظر بين البطل والخارج.
بحت بكلمتين للسلطان

قلت له : جبان
هكذا تتحول رؤية الحلاج الى حياة ، الى فعل ، الى ممارسة، الى
موقف لتوحد نفسه ، بعد ان قذف بنفسه الى قمة الصراع - ولكن
الآخرين لا يتركونه . وفي الجزء الخامس يتجسد العقاب ، وتنقطع
الانغام في جمل قصيرة ومشحونة متوترة بين فظاعة الفعل الانساني،
وبين براءة الصيحة الصوفية المثلثة بالحب . اننا حين نسمع صوت

لعل عبد الوهاب البياتي هو الشاعر الوحيد من جيل رواد حركة
الشعر الحر الذي ظل ملتزما حتى الان بانجاهه الواقعي في الفن ، في
الوقت الذي تتعرض فيه الواقعية كانجاه فني للانكاس ، ليس على ايدي
معارضيه فحسب ، وانما نتيجة لانحراف بعض من كانوا يؤيدونها
بحماس شديد في البداية . ونعني بالالتزام شاعرنا اختياره الارادي
لموقف محدد من الحياة والفكر وانضمامه الى جانب المدافعين عن
الاشتراكية وحرية الانسان والتقدم . ولم تكن المشكلة بالنسبة اليه
ترديد مجموعة من الافكار النبيلة او تفاؤلا ساذجا او مساهمة بالنوايا
الحسنة ، وانما كانت وما تزال مشكلة حياة باكملها بلا سكن ، بعيدا
عن الوطن والابناء والصحاب والذكريات ، بعيدا عن الطيور والغيوم
والبيوت التي عرفها واحبها في صباه ، وبعيدا عن الشوارع والمدن
والوجوه التي شاهدت حماسة نضاله شابا ينتقل من بلد الى اخر ،
وينظر الى العالم من نافذة قطار بعيون المحكوم عليه بالنفي ، ولكنه
كان يستطيع دائما ان يدافع عن نفسه وعن العالم ، ولم يتوقف ابدا
عن الكتابة .

وفي ديوان « سفر الفقر والثورة » يضع الشاعر امامنا صورتين
عظيمتين لمأساة البطل الملتزم ، الاولى تتمثل في قصيدته « عذاب
الحلاج » ، والتي تحتوي على ستة اجزاء ينتظمها نسق درامي دقيق...
يتصاعد حتى ذروة المأساة في الجزء الخامس « الصلص » وتنتهي
القصيدة في الجزء السادس « رماد في الريح » باكتشاف المعنى الكلي
للمأساة . والقصيدة الثانية التي تعكس لنا مأساة البطل الملتزم هي
قصيدة « محنة ابي العلاء » وهي مقسمة ايضا الى اجزاء عددها عشرة
ويختلف بناؤها تماما عن القصيدة الاولى ، فهي تتخذ مسارا افقيا ،
وتتحدد في شكل عرض لمواقف اساسية من حياة الشاعر الكبير لا يؤدي
كل موقف منها الى الآخر ، ولا يرتبط به ارتباطا ضروريا ، ولكنها تصب
جميعا في مركز واحد في النهاية لتعطينا اثرا كليا واحدا على الطريقة
التي يتبعها شعراء الحكمة من قديم في انهاء قصائدهم .
في قصيدة « عذاب الحلاج » يبدأ الجزء الاول « المرید » لشاهد
البطل وقد توقف عن المسير مع حركة الحياة العادية متلهفا الى نوع
اخر من الحياة لم يتبينه بعد ...

- 1 -
سقطت في العتمة والفراغ
تلطخت روحك بالاصباغ
شربت من آبارهم
اصابك الدوار
تلوثت يدك بالحبر وبالغبار
وينتهي الجزء الاول من القصيدة والشاعر يخاطب بطله الذي لم
يزل غارقا في تلهفه النبيل الحزين .
وها انا اراك في ضراعة البكاء

البطل في قمة عذابه النبيل ، لا تتمكن من الحصول على متعة التطهر التقليدية ، فان الشاعر يؤكد ان كل ما حدث عن طريق التفصيلات الموجزة ، كان حقيقيا .

وقال لي اياك
واغلق الشباك
واندفع القضاة والشهود والسياف
فاحرقوا لساني
ونهبوا بسناني
وبصقوا في البئر ، يا محيري
ومسكري
وطردوا الاضياف

ولكن رغم كل شيء يظل هناك دائما امل في الخلاص .

فاتح لي الشباك - مد لي يدك اه .

لقد قطعوا اوصال الحلاج - ثم احرقوه ، ولكن اسمه ما يزال حرا
يتردد كالنار والريح . لقد قطعوا اوصال الحلاج ثم احرقوه ولكنه حل
في الحياة وانتصر على الموت ! كيف ؟ يقول البياني في ختام القصيدة:
- اوصال جسمي اصبحت سماء
في غاية الرماد
ستكبر الغاية ، يا معانقي
وعاشقي
ستكبر الاشجار .

اما في قصيدة « محنة ابي العلاء » فان الشاعر عبد الوهاب البياني يعطينا صورة واحدة للانسان في اطار عصره بأكمله . ونظرا لانساع المشهد ، فقد قسمه الشاعر الى عشر مستويات بحيث يمكن للمتلقى ان يكشف الحقيقة من اكثر من جانب . وما اشبه اجزاء القصيدة العشرة باجزاء مسرح بالغ الضخامة ، يقسم الى عشر مستويات ، ليمثل عليه عرض هائل من فصل واحد . اقيم في مقدمته تمثال لفارس من النحاس ، رمزا لخواء القيم النفعية التي تتحكم في مقدرات اناس فقدوا الامس والحاضر والحلم يتراءون في خلفية العرض كالظلال .

هذا بلا امس وهذا غده فيثارة خرساء

داعبها ، فانقطعت اوتارها ولاذ بالصهباء

اشعل في الهشيم نارا وانتهى الصراع

وذا بلا شرع

ابحر حول بيته وعاد

وبعد ان يصور الشاعر الجو العام للمأساة ، يبدأ في تعريفنا بابي العلاء ، وشيئا فشيئا تتشابك خيوط القصيدة منطلقة من وعي البطل لذاته ورغباته العذبة في تخطي هذه الذات في عالم محكوم عليه بالصمت والحزن : - مت وما تزال حيا انت والريح التي تكي

تهز البيت في المساء

حرمته من نعمة الضياء

علمته نقل غياب الكلمات وعذاب الصمت والبكاء

الشارع الميت غطى وجهه الصقيع

والباب اغلقت الى الابد

ثلاثة منها اطل في غد عليك

مقلا يديك

لزوم بيتي وعماي واشتعال الروح في الجسد

ثم يدخل البطل في صراع مع الخارج ليستخلص حرته وصوته:

كنت اذا ما غاب عبر حجرتي القمر

وغسل المطر

ذوائب الشجر

انزع نفسي في بلاط قصره ، واكسر الحجر

اشد في قيثرتي الوتر .

امد للسحر

يدي التي تحجرت ، واصبحت

من دون ان ادري الى الامير

خنجره وصونه - صوتي انا الكسير

يدي - التي استرجعتها

وبدأ الالتزام مرحلة ايجابية يرتفع فيها الشاعر ليؤدي دوره

الحقيقي كشاهد على واقع مليء بالنفاق والزيف والتعاسة . كشاهد

على عصر سادته الظلام :

وكنت انت بينهم عراف

وكنت في مادبة اللثام

شاهد عصر سادته الظلام

والى هنا كان من الممكن ان يدفع المضمون الايديولوجي للقصيدة

بشاعرنا عبد الوهاب البياني الى الخطابة المهله - ولكنه كشاعر انساني

وكفنان كبير استطاع ان يستمد من حياة البطل العادية ومن تجاربه

مع القرية والعذاب ما يخلق خلفية انسانية للصورة :

ابحث عن صحابه

خضراء ، عني تمسح الكآبه

تحملني

الى براري وطني

فمثل هذه اللحظة تحقق بتفاعلها مع النغم الاساسي في القصيدة

- وهو يدور حول ان الشاعر ضمير عصره - نوعا من البناء الهارموني

يضيف الى الكلمات والصور المستخدمة عمقا اضافيا .

وبلجا الشاعر الى طريقة اخرى لتجسيد الخط الاساسي في

القصيدة حين يحيطه بلحظات من التوتر شبيهة بالظلال مهر الشاعر في

التقاطها وتجسيدها من خلال التناقض الموجود في الحقيقة الانسانية

والواقع : لم يبق الا الموت في الاطلال والهيكل

لم يبق الا الشعر في ذاكرة الاحقاب

وبعد الف سنة سننضج الاعناب

وملأ الاكواب

ويبعث المقني

فاه ثم آه يا صبايتي وحزني

ولم يقف البياني عند هذا الحد ، لان هدفه كان اكثر من وضع

قصة شعرية مؤثرة ، ولذلك يمتد الصوت ويشير الى ما وراء واجهة

الحياة المصرية من اوجاع وضعف فنشعر بان المأساة لم تزل مستمرة

وان تكن مختلفة في ثوب عصري مما يضيف معنى جديدا لمحنة ابي العلاء:

صفادع الحزن على بحيرة المساء

كانت تصب في طواحين الليالي - الماء

تقارض الشاء

ما بينها ، وتشر الفسيل في الهواء

وتشرب الشاي وفي المكاتب الايقنة البيضاء

والصحف الصفراء

كانت نقيء حقدما على الجماهير ، على المارد وهو يكسر الاغلال

صفادع كانت تسمي نفسها « الرجال »

ولكن هل معنى ذلك ان الحياة لا تتغير وان الظلم الانساني حقيقة

ابدية ؟ هكذا يدعي البعض ويجيب البياني في ختام قصيدته :

الارض رغم حقدكم تدور

والنور غطى نصفها المهجور

واذا كانت قضية التزام الانسان والفنان قد طرحت على نحو

موضوعي في قصيدتي « عذاب الحلاج » و « محنة ابي العلاء » وكشف

الشاعر لنا عن ابعاد الموقف الالتزامي ، متخذنا من حياة كل مسن

الشخصيتين وعاء يصب فيه رؤيته الخاصة محملة بشعور تاريخي حي،

فان قضية الالتزام تطرح تجربة الشاعر نفسه في قصيدته الطويلة

الاخري بعنوان « سفر الفقر والثورة » ونحن نشعر فيها بانه استمد

صورة الفقر من حاجته الى الوطن والاهل والصديق ، وبانه استمد

الثورة من حياته نفسها . وطوال القصيدة يتردد الاحساس العميق

أصاخر بالوحدة وبالعذاب والحلم ، بالعدالة ووحشة الانتظار والليالي الضائعة والمنعى والادراك المفزع للمميز والسحرية الممزجة بالمرارة :

— من يسزري فصيده

لغاء هذا القمر الفارق في بحيرة المساء

فوق القمم المديده

لغاء هذا المطر الأخضر ، هذي الزهرة الفريده

— ومن يفك الشاعر الاسير

من اسره من ظلمات عصرنا ، من فلق المصير

— الشعر كان فدري يا فاطمي الاجير

وهكذا نرى مدى ارتباط الشعر بحياتنا عبد الوهاب البياتي ، ان الشعر بالنسبة له كمال فال ذات يوم بحق « نوع من العبادة يحيمه من الكثير من الضياع او العرج والسقوط . نوع من الطهارة ، ودفاع عن النفس ضد الموت والمعادية ، بدونه يصبح الحياة لا يمرر لها، ولذلك فهو يكتب دائما ، ولا يتوقف عن الكتابة . وينعكس هذا الاحساس على « فصيحة سفر الفقر والثورة » التي تصور حياة الشاعر مطاردا من منفى الى منفى ، لا يصحبه سوى اغنيائه وايمانه العميق بالمستقبل، وتتداخل الصور المسنودة من الطبيعة وعناصر الوجود الدائمة مع الصور المسنودة من واقع الحياة اليومية — والاحداث المعاصرة لتكسب الكلمات والصور فدرا مزايده من الكثافة والنقل .

ان عبد الوهاب البياتي منيعظ دائما ، ففي المنفى يكسب الانسان هذه العادة . انه يحلم بصيوان مفوحة :

بعيدا انت يا وطني

كحلم عبر نافذة القطار اراك في الوسن

نخيلك في ضباب الفجر ايقظني

ان هذه القصيدة تعكس لنا من حياة الشاعر صورة فريدة للاغتراب:

وتحملني ليالي الصمت للمفهي

شريدا ماله ماوى

يجوب شوارع المدن التي نامت بلا نجمه

على عكازة ويغيب في الظلمه

ولكنها تعكس ايضا وفي نفس الوقت صورة فريده للمقاومة

والصمود :

فلت لكم : اعود

لكنني احترفت في الموانئ البعيده

وكاذن القصيده

اسلحتي الوحيدة

بها فقات اعين للصوص والضفادع البليده

ومن تكامل هاتين الصورتين ينبثق الشعر في قصيدة « سفر الفقر والثورة » . وفي اغلب قصائد الديوان ، غنيا في بساطة حاسمة مؤثرة ، فالشاعر لا يقف عند سطح التجربة ، وانما ينفذ الى الداخل ، لا يتوه في الاحشاء وانما ينجه الى القلب مباشرة :

وكانت العبارة

اجنحتي بها اطيرونها وبها اخترق الحصار

في سنوات النار

وكانت الامطار

مركبتي بها اليك انهب الففار

فالف الف ليلة انتظار

شميت الفجر الذي يحبو على الجدار

فكن صباحي ، واحتني المطار

ان الصباح والواحة المطار اوصاف عادية تماما للشئ المنتظر تحققة من البناء الجديد . ولكن الشاعر في الفقرة السابقة من قصيدته (الى الاتحاد الاشتراكي العربي) قد نفذ الى داخل التجربة ، ووضع الصباح والواحة في نهاية طريق شاق مقفر ، وضعهما في المكان الذي يكسبان فيه طاقة جديدة ، وعذوبة غنائية .

ان القيمة الاصلية في تراثنا الادبي تكون جانبا هاما من شاعرية

البياتي . فهو لا يكف عن التأكيد اذا ما طرحت قضايا الشعر والفلسفة او الشعر والسياسة بان الشاعر مفر من قبل كل شئ . ونعتقد انه نفس المعنى الاشفافي لكلمة شعر في اللغة اليونانية القديمة . مما يؤصل وجهة نظر الشاعر ويسحبها على المستوى الالهي العام . والبياتي يحاول اقامة جسر بيننا وبين تراثنا العربي حين يستمد منه موضوعات اكبر قصائد الديوان « عذاب العلاج » و « محنة ابي العلاء » حتى لا نصبح مقطوعي الصلة بماضينا فلا نكتسح في زحام العرضية . والبياتي يسيطر عليه انفعاله احيانا فيتحول الى مفر كما في قصيدته الاولى الى ولده علي :

البحر مات

والعشب فوق جبينه يطفو ونظمو دنياوات

كانت لنا فيها اذا غنى المفني ذكريات

غرفت جزيرتنا وما عاد الغناء

الا بكاء

وكان موجات من الحزن تتدفق الواحدة تلو الاخرى ولا شئ اخر . ولكنه يسيطر على انفعاله نوعا ما في القصيدة الثانية المهذاة السى ولده فترى وراء صورة اغترابه وشوفه صورة اخرى لعالم لامبال :

مدن بلا فجر تنام

ناديت باسمك في شوارعها — فجاؤني الظلام

وسألت عنك الريح وهي تن في قلب السكون

ورأيت وجهك في المرايا والعيون

وفي زجاج نوافذ الفجر البعيد

وفي بطاقات البريد

مدن بلا فجر يغطيها الجليد

هجرت كناسها عصفير الربيع

فلمن نفني ؟ والمفاهي اوصدت ابوابها

ولمن تصلي ؟ ايها القلب الصديق

والليل مات

هذا الذي يرتبط بالاشياء ارتباطا حميما جدا وينفصل عنها في الوقت نفسه ، الذي يجد نفسه في كل لحظة مواجهها لقدره ومصيره كالمحكوم عليه بالاعدام ، الذي ينظر الى الشئ ولا يراه ، الذي ينتظر من جاء ولم يجيء في الوقت نفسه ، الذي يكون في يقظة ابدية دائمة . انه المنفي ، انه الشاعر عبد الوهاب البياتي رائد الشعر الحديث صنع من سنابل القمح والتاريخ والرياح والمطر والربيع والفجر قصيدة « الى عبد الناصر الانسان » وآمن بان الفنان الحقيقي لا بد وان يكون صوته مع التقدم لان وقوفه ضد الانسان يخرج به عن كونه فنا .

واذا كانت نثار من حين الى اخر زوبعة حول من هو مكتشف الشكل الجديد في الشعر فان عبد الوهاب البياتي بلا جدال هو اول من حدد المعنى الثوري للشكل الجديد ، باعتباره الوعاء المناسب لان يصب فيه المضمون الثوري لحركة الواقع المعاصر . ويكون بذلك اول من حقق الوحدة بين الشكل والمضمون المتلائم معه ، واذا كان هنالك من الشعراء من سبقوه في كتابة القصائد دون التقيد بعدد التفعيلات من بيت الى اخر مثل الشاعرة نازك الملائكة او الشاعر نزار قباني اللذين فدما لنا في النهاية موضوعات وتجربة تقليدية في شكل جديد ولا يكونان فد فعلا شيئا اكثر من وضع بدعة جمالية ، فان عبد الوهاب البياتي يظل هو المكتشف الحقيقي للشكل الجديد في الشعر . لانه اول من وهبه الروح التي تضمن له البقاء ، الروح الثورية التي لا تتحد بالمضمون الايديولوجي للعمل الفني فحسب وانما بما يحتوي عليه العمل من مضامين انفعالية وعاطفية بل وبيولوجية ايضا ، فان الروح الثورية انعكاس ايجابي صادر عن حياة باكملها .

وبعد ، فقد حاولت اللحاق بتلك الروح الثورية في ديوان سفر الفقر والثورة . . . ولكن ما اصعب هذا العمل ! ان ثورية عبد الوهاب البياتي تتمرد على كل تحديد !

شوقي خميس

القاهرة